## التفكير النقدي




**العدد الثالث عشر: الأدلة ليست متكافئة الوزن**

أكدنا في الفصل الأول على ضرورة طلب الدليل إزاء أي دعوى؛ غير أن «الدليل» أو «الشاهد» بحد ذاته ينطوي على مراتب ودرجات متفاوتة. فشائعة يتناقلها معارف، ومنشور مبتور التوثيق في شبكة اجتماعية، وتقرير موثق بأرقام وإحصاءات رسمية، كلها قد تُصنف بوصفها «أدلة وشواهد»، لكنها بلا شك تختلف في موازين التقييم وزناً وقيمة.

وثمة معايير يسيرة لقياس قوة الشاهد: هل هو منقول عن مصدر مباشر أم بالواسطة؟ هل يمكن تعقبه والتحقق من مصداقيته؟ هل للمصدر مصلحة شخصية في طرح هذه الدعوى قد تخل بحياده وتجرده؟ وهل ينسجم هذا الدليل مع شواهد مستقلة أخرى تؤيده؟

لقد تبلور تقليد علمي كامل في الحوزات العلمية – متمثلاً في «علم الرجال» و«الدراية» – مرتكزاً على هذه المسألة بعينها؛ إذ لا يمكن البت في حجية الرواية بناءً على مضمونها فحسب، بل يتحتم فحص سلسلة الرواة (السند)، وتقييم وثاقة وضبط كل راوٍ بدقة، ليُحكم على الرواية تبعاً لذلك بدرجات متفاوتة من قبيل: «الصحيح»، و«الحسن»، و«الموثق»، و«الضعيف». وهذا يبرهن على أن مبدأ «عدم تكافؤ الأدلة» قد صيغ في هذا التراث العلمي كنظام منهجي متين؛ فالرواية ضعيفة السند لا يمكن الركون إليها في استنباط الأحكام حتى وإن وافقت هوى النفس أو لاقت قبولاً في محتواها.

وفي حياتنا المعاصرة، ينبغي استحضار هذا المنهج: فقبل تصديق أي خبر، لا نسأل فقط: «ما هو الخبر؟»، بل: «ما مدى متانة سنده ومصدره؟».

**تمرين هذا العدد:** خذ خبراً أو دعوى لفتت انتباهك اليوم، وابحث عن: من هو مصدرها الأصلي؟ هل يمكن تتبع أصل الخبر؟ وكم مصدراً مستقلاً أكد صحته؟

**الخلاصة:** قبل أن تسأل «هل هذا الكلام صحيح؟»، اسأل أولاً: «مَن طرح هذه الدعوى، وبأي سند؟».

## أسئلة وردود

## هل يستخدم الإمام عجل الله فرجه الشريف السيف؟

**السؤال:**

هناك روايات كثيرة تؤكد أن الإمام المهدي المنتظر عجل الله فرجه الشريف يستخدم السيف بشكل كبير، فهل هذا ينافي كون الإسلام العظيم يدعو إلى السلام؟

**الجواب:**

أولًا: لا منافاة بين استخدام الإمام عجل الله فرجه الشريف السيف بشكل كبير، وبين كون الإسلام يدعو إلى السلام؛ لأن السلام لا يقوم إلا بإحقاق الحق ودحض الباطل، عبر إقامة حدود الله تعالى والقصاص العادل لما تصل إليه البشرية من فساد، فتحتاج إلى تقويمها بالسيف ليعم السلام، هذا لو سلّمنا بأن الإمام عليه السلام يستعمل السيف بشكل كبير.

ثانيًا: لا نسلِّم أن الإمام عليه السلام يستعمل السيف بشكل كبير، فلو نظرنا إلى المعارك من جهة جغرافية تارة، وتارة أخرى من جهة عددية بالمقايسة إلى فتح العالم على يديه عجل الله فرجه الشريف، لوجدنا أن الإمام عجل الله فرجه الشريف يفتح العالم من دون أن تكون هنالك حروب عالمية، وإنما تكون بعض المعارك في بلاد الشام والعراق وعددها قليل، وباقي العالم يدخل في دولة الإمام عليه السلام طوعًا وسلمًا، فلا يكون هناك استعمال للسيف بشكل كبير.

وكذلك لو نظرنا إلى المعارك من جهة زمنية، فإنّ أطول مدة لها ثمانية أشهر، فبالقياس إلى مدة دولة القائم عجل الله فرجه الشريف البالغة (٣٠٩) سنة على بعض الروايات يعدّ استخدامه للسيف قليلًا جدًّا.

مركز الدراسات التخصصية في الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف

## مقتطفات

## حقيقة الشرف

يقول الشيخ محمّد حسين كاشف الغطاء (طاب ثراه):

«إنّي وإن منحتني الألطافُ المستجنّةُ بادئَ بَدئها شرفَ الأُسرة وكرمَ الآباء والأجداد الذين سبقت لهم المساعي المشكورة في الوسط الذي نبغوا فيه والتربة التي نبتوا منها وعادوا إليها مجداً متواصلاً وسلسلةً مآثرَ متكانفة، يعرف ذلك لهم كلُّ أهل حاضرتهم وأكثر الحواضر الإسلاميّة، ولكن لا أحسّ أنّ في ذلك شيئاً من الشرف ولا حظّاً من السعادة.

بيد أنّي أُحِيفُ على المرء أن يتلمّظ فوهُ بذلك، فضلاً عن اتّكال النفس إليه واعتمادها عليه؛ قد تجلّى اليوم مستنيراً لكلّ متنبّهٍ أو نبيهٍ أنّ الحيّ إذا افتخر بشرف ميّتٍ فالميّت هو الحيّ والحيّ هو الميّت، وأنّ:

أشرفُ الأقوامِ أُمّاً وأباً * * * مَن عافَ أن يَسمُوَ بأُمٍّ وبأبِ

وأنّ خِسّة الأبوين زيادةٌ في شرف الشريف بنفسه، وشرفهما –إذا كان خسيساً– زيادةٌ في خِسّته.

كلّا، ما الشرف بالمال، ولا بحسن الوجه والجمال، ولا بالآباء والعشائر، ولا بسعة العلوم ومعرفة المهن والصنائع، ولا ولا... إلخ.

ليس الشرف إلّا أن يكدح الإنسان في معركة الحياة حتّى يكتسب امتلاك مالٍ أو مَلَكَة كمالٍ أيّاً ما كان؛ علماً أو صناعةً، خطابةً أو شجاعةً أو غير ذلك من مادّيات الشرف وطلائعه، لا ما هو الشرف نفسه؛ ثمّ يخدم المرء بمساعيه تلك ومكتسباته أُمّته وملّته خدمةً تعود بالهناء والراحة عليهم، أو دفع شيءٍ من الشرور عنهم.

الشرف حفظ الاستقلال، وتنشيط الأفكار، وتنمية غرس المعارف، والذبّ والمحاماة عن نواميس الدين وأُصول السعادة.

فالشريف من يخدم أُمّته خدمةً تُخلّد ذكره وتوجب عليهم في شريعة التكافؤ شكره، كلٌّ يؤدّي جهده ويُنفق ممّا عنده».

المصدر: الدين والإسلام أو الدعوة الإسلامية، ج ١، ص ١١١-١١٣

## نافذة على المقالات

## دور أنواع المعرفة في نظرية «الحياة المعقولة» عند العلامة محمد تقي الجعفري

**«نقش أنواع شناخت در نظريه "حيات معقول" علامه جعفرى»**، للباحث **مهدي سعادتمند**، أستاذ مساعد في قسم المعارف الإسلامية بجامعة يزد، منشور في مجلة علمية-بحثية، السنة الرابعة والعشرون، العدد (٩٤)، شتاء ١٣٩٨هـ.ش، ص١٩٥-٢١٨.

**موضوع المقال**

يعالج البحث أحد المرتكزات المعرفية في نظرية «الحياة المعقولة» عند العلامة محمد تقي الجعفري، من خلال دراسة موقع المعرفة بمختلف أنواعها في بناء هذا النموذج الحضاري والإنساني. وينطلق الباحث من أن الحديث عن أسلوب الحياة لا ينفصل عن الحديث عن مصادر المعرفة التي تهدي الإنسان إلى اختيار الطريق الصحيح، ولذلك يحاول الكشف عن العلاقة بين تعدد مصادر الإدراك وبين تحقق الحياة الإنسانية المنشودة في فكر الجعفري.

ولا ينظر المقال إلى المعرفة بوصفها قضية إبستمولوجية مجردة، بل باعتبارها عنصرًا فاعلًا في صناعة الإنسان وتوجيه سلوكه، الأمر الذي يجعلها أساسًا لفهم نظرية «الحياة المعقولة» ومقوماتها.

**سؤال البحث وإشكاليته**

يحاول الباحث الإجابة عن سؤال رئيس يتمثل في: **ما أنواع المعرفة التي تقوم عليها نظرية «الحياة المعقولة» عند العلامة الجعفري؟ وما الدور الذي يؤديه كل نوع منها في تحقيق هذه الحياة؟**

وتنبع الإشكالية من أن الحياة المعقولة لا يمكن أن تقوم على مصدر معرفي واحد، في حين أن كثيرًا من الاتجاهات الفكرية الحديثة تميل إلى اختزال المعرفة في العقل التجريبي أو العقلانية الغربية، وهو ما يدفع الباحث إلى دراسة التصور المعرفي المتكامل الذي يقدمه العلامة الجعفري.

**منهج الدراسة**

اعتمد الباحث المنهج **الوصفي التحليلي**، مستندًا إلى دراسة مؤلفات العلامة الجعفري، ولا سيما كتبه المتعلقة بالحياة المعقولة، والعلم والدين، والفلسفة، والقرآن، وغيرها من آثاره الفكرية، مع تحليل المفاهيم واستقراء النصوص ذات الصلة للوصول إلى البناء المعرفي الذي تقوم عليه النظرية.

**أبرز الأفكار والنتائج**

يفتتح الباحث الدراسة ببيان أن «الحياة المعقولة» تمثل نمطًا من الحياة يقوم على التعقل والاختيار الواعي، ويقابل ما يسميه العلامة الجعفري «الحياة الطبيعية المحضة» التي تقتصر على إشباع الحاجات والغرائز دون غاية متعالية.

ثم يبين أن المعرفة في هذا التصور ليست مقصورة على الإدراك العقلي أو الحسّي، وإنما تتشكل من منظومة متكاملة تضم **المعرفة الوحيانية، والمعرفة الحكمية (الفلسفية والعقلية)، والمعرفة العرفانية، والمعرفة العلمية التجريبية**، ولكل منها مجالها ووظيفتها، ولا يمكن الاستغناء عن أي منها في بناء الإنسان.

ويؤكد الباحث أن هذه المعارف قد تُكتسب بطرق مختلفة؛ كالتعليم، والتربية، والتقليد، والتعبد، أو التجربة، وأنها قد تكون حضورية أو حصولية، إلا أن قيمتها لا تتحدد بمجرد مصدرها، بل بقدرتها على الإسهام في توجيه الإنسان نحو غايته الوجودية.

ويتناول المقال الدور المحوري للعقل العملي في نظرية الحياة المعقولة، مبينًا أن العلامة الجعفري يرفض العقلانية الغربية (Rationalism) عندما تتحول إلى مرجعية مكتفية بذاتها، ويرى أن العقل، على أهميته، يحتاج إلى هداية الوحي حتى يتمكن من تصحيح أخطائه وتوجيه سائر المعارف نحو غاياتها الصحيحة.

كما يناقش البحث العوائق التي قد تؤثر في سلامة المعرفة، سواء كانت ناتجة عن قصور أدوات الإدراك، أو عن تأثير الأهواء والميول والعوامل غير المعرفية، ويرى أن تجاوز هذه العوائق لا يكون إلا بالتكامل بين العقل والوحي، بحيث يؤدي كل منهما وظيفته في تصحيح الآخر وإكماله.

وينتهي الباحث إلى أن الحياة المعقولة لا تتحقق إلا بمنظومة معرفية شاملة تستوعب مختلف أنواع المعرفة الإنسانية والإلهية، مع تفاوت قيمتها بحسب مدى إسهامها في تحقيق الغاية العليا للإنسان، وهي المشاركة الواعية في النظام الكلي للوجود، أو بعبارة العلامة الجعفري: **عبادة الله والسير نحو الحياة الطيبة.**

**القيمة العلمية**

تكمن أهمية الدراسة في أنها تعيد بناء الأساس المعرفي لنظرية «الحياة المعقولة» من خلال تتبع نصوص العلامة الجعفري نفسها، وتبرز أن مشروعه لا يقوم على ثنائية العلم والدين أو العقل والوحي، بل على التكامل بينها ضمن رؤية فلسفية وتربوية شاملة. كما تسهم في توضيح البعد الإبستمولوجي في فكر الجعفري، وهو جانب لم يحظَ بالعناية نفسها التي حظيت بها أبعاده الأخلاقية والتربوية.

**تقييم تحريري**

يمتاز المقال بحسن تنظيمه وتسلسل بنائه، إذ ينتقل من تحديد مفهوم الحياة المعقولة إلى بيان أنواع المعرفة ومصادرها ثم دورها في بناء الإنسان، مع اعتماد واسع على النصوص الأصلية للعلامة الجعفري، مما يمنح الدراسة درجة جيدة من التوثيق والانسجام مع فكره.

ومع ذلك، يظل البحث منصبًا أساسًا على إعادة بناء رؤية العلامة الجعفري من داخل مؤلفاته، دون أن يوسع دائرة المقارنة مع النظريات المعرفية المعاصرة أو مع تصورات فلاسفة الإسلام الآخرين، وهو ما يفتح المجال لدراسات مقارنة يمكن أن تثري هذا الموضوع وتكشف عن خصوصية نظرية «الحياة المعقولة» ضمن الفكر الإسلامي المعاصر.

إعداد: الآفاق

## ومضات




* لقد عاش العالم المسلم الشيعيّ دائماً مع كلّ الصالحين وكلّ المستضعفين من أبناء هذه الأمّة الخيّرة عيشة الرفض لكلّ أنواع الباطل والإصرار على التعلّق بدولة الأنبياء والأئمّة، بدولة الحقّ والعدل الّتي ناضل وجاهد من أجلها كلّ أبرار البشريّة وأخيارها الصالحين.

**لمحة تمهيديّة عن مشروع دستور الجمهوريّة الإسلاميّة ص:٤**

* أيّ مسلم لا تهزّه أمجاد تلك الصورة وروعتها؟ وأيّ مسلم لا يشعر بالزهو والاعتزاز إذا أحسّ بعمق أنّه يعيد إلى الدنيا من جديد أيام محمّد صلى الله عليه وآله وعليّ عليه السلام وأيام أصحاب محمّد صلى الله عليه وآله الميامين الّذين ملأوا الدنيا عدلاً ونوراً؟

**منابع القدرة في الدّولة الإسلاميّة ص: ١٥**

* لا شكّ في أنّ البيعة للقائد المعصوم واجبة لا يمكن التخلّف عنها شرعاً. ولكنّ الإسلام أصرّ عليها واتّخذها أسلوباً من التعاقد بين القائد والأمّة لكي يركّز نفسيّاً ونظريّاً مفهوم الخلافة العامّة للأمّة.

**خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء ص:٢٣**

* من الواضح أنّ الحفاظ على الثّورة يفرض أن يمتدّ دور النبيّ في قائد ربّانيّ يمارس خلافة الله على الأرض وتربية الجماعة وإعدادها ويكون شهيداً في نفس الوقت. وهذا القائد الربّانيّ هو الإمام. ويجب أن يكون معصوماً لأنّه يستقطب الخطّين معاً ويمارس وفقاً لظروف الثّورة خطّ الخلافة إلى جانب خطّ الشهادة.

**خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء ص:٢٤**

* الإمام كالنبيّ شهيد وخليفة لله في الأرض من أجل أن يواصل الحفاظ على الثّورة وتحقيق أهدافها. غير أنّ جزءاً من دور الرسول يكون قد اكتمل وهو إعطاء الرّسالة والتبشير بها والبدء بالثّورة الاجتماعيّة على أساسها. فالوصيّ ليس صاحب رسالة ولا يأتي بدين جديد بل هو المؤتمن على الرّسالة والثّورة الّتي جاء بها الرسول.

**خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء ص:٢٤**

* الإمامة ظاهرة ربّانيّة ثابتة على مرّ التاريخ وقد اتّخذت شكلَين ربّانيّين: أحدهما شكل النبوّة التابعة لرسالة النبيّ القائد، فقد كان في كثير من الأحيان يخلف النبيّ الرسول أنبياء غير مرسلين يكلَّفون بحماية الرّسالة القائمة ومواصلة حملها. وهؤلاء أنبياء يوحى إليهم، وهم أئمّة بمعنى أنّهم أوصياء على الرّسالة وليسوا أصحاب رسالة. والشكل الآخر هو الوصاية بدون نبوّة وهذا هو الشكل الّذي اتّخذه رسول الله صلى الله عليه وآله بأمر من الله تعالى فعيّن أوصياءه الاثني عشر من أئمّة أهل البيت ونصّ على وصيّه المباشر بعده عليّ بن أبي طالب في أعظم ملأ من المسلمين.

**خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء ص:٢٤**

## مصطلح الأسبوع

## المفوّضة

يُعدّ مصطلح «**المفوّضة**» من المصطلحات الكلامية التي ارتبطت تاريخيًا بمسألة **الجبر والتفويض**، وهي من أقدم القضايا التي ناقشها علم الكلام الإسلامي؛ لما لها من ارتباط مباشر بمباحث الإرادة الإنسانية، والقدرة، والقضاء والقدر، والعدل الإلهي، وفلسفة التكليف والثواب والعقاب. وقد نشأت هذه المسألة من محاولة الإجابة عن سؤال أساسي: ما مدى استقلال الإنسان في أفعاله، وما حدود تأثير الإرادة الإلهية في أفعال العباد؟

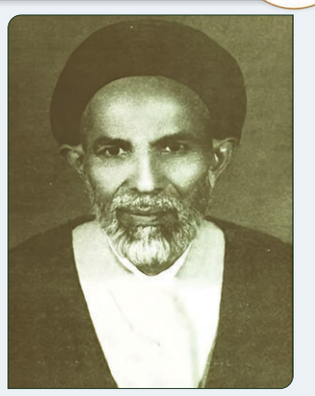
والتفويض في أصل اللغة يعني **إسناد الأمر إلى شخص آخر وجعله متوليًا له**. ومن هذا المعنى اللغوي نشأت استعمالات متعددة للمفهوم؛ فهناك تفويض محمود، كأن يفوّض الإنسان أمره إلى الله تعالى اعتمادًا عليه وتوكّلًا، وهو معنى قريب من التوكّل والاعتماد على الله. وهناك تفويض مذموم في المجال الكلامي، وهو الاعتقاد بأن الله تعالى قد فوّض أفعال العباد إليهم بصورة مستقلة، بحيث لا يكون لله تعالى تدخّل أو تأثير في أفعالهم.

وقد عُرفت فرقة **المفوّضة** في التراث الكلامي بأنهم القائلون بأن الله تعالى فوّض أفعال الإنسان إليه تفويضًا تامًا، في مقابل **الجبرية** الذين نفوا الاختيار الحقيقي عن الإنسان وجعلوا أفعاله واقعةً بصورة اضطرارية. وقد رأى علماء الإمامية أن كلا الاتجاهين يؤدي إلى لوازم غير صحيحة؛ فالجبر ينافي العدل الإلهي، والتفويض المطلق يحدّ من شمول القدرة الإلهية، ولذلك طرحوا نظرية «**الأمر بين الأمرين**» بوصفها موقفًا وسطًا يثبت قدرة الإنسان واختياره مع حفظ الهيمنة الإلهية.

وعليه، فإن مفهوم التفويض لا يُفهم بمجرد معناه اللغوي، بل يحتاج إلى تحديد دقيق للفاعل والمتعلَّق والحدود المقصودة منه؛ إذ قد يكون تفويضًا محمودًا في مقام التوكل، وقد يكون مذهبًا كلاميًا مرفوضًا عند الحديث عن استقلال الإنسان عن القدرة الإلهية.

## حرّاس التراث

## السيد محمد صادق بحر العلوم؛ حارسُ المخطوطات ومُحيي نفائس التراث الشيعي



في تاريخ العلوم الإسلامية، لا يقتصر حفظ التراث على تأليف الكتب، بل يحتاج إلى رجالٍ يكرّسون أعمارهم لاكتشاف النصوص القديمة، وجمع النسخ الخطية، ومقابلة المصادر، وإخراج الكتب العلمية بصورة تتيح للأجيال الاستفادة منها. وكان السيد محمد صادق بحر العلوم (ت ١٣٩٩هـ) واحداً من أولئك الذين حملوا مسؤولية صيانة جانب مهم من الذاكرة العلمية للشيعة، من خلال عنايته بالكتب والمخطوطات وتحقيق المصادر التراثية.

**شغفٌ بالكتاب وتأسيسُ مكتبةٍ تراثية**

نشأ السيد محمد صادق بحر العلوم في بيئة علمية عريقة في النجف الأشرف، وارتبط منذ شبابه بالكتاب والمصادر العلمية. وقد كان لقربه من علماء النجف، وخصوصاً أصحاب المكتبات العلمية، أثرٌ في تنمية اهتمامه بجمع الكتب والمخطوطات.

ومع مرور الزمن، أسّس مكتبة خاصة أصبحت من المكتبات العلمية المهمة في النجف الأشرف، وضمت عدداً كبيراً من الكتب المطبوعة والمخطوطات. ولم تكن هذه المكتبة مجرد مكان لحفظ الكتب، بل كانت مركزاً يرتاده الباحثون وطلاب العلم للاستفادة من مصادرها. وتشير الفهارس الخاصة بمكتبته إلى ما احتوته من نسخ خطية، ومؤلفات، ومستنسخات، وتصحيحات وتعليقات علمية.

**محققُ النصوص وراعي المصادر القديمة**

تميّز السيد بحر العلوم بعناية خاصة بتحقيق الكتب التراثية ومقابلة النسخ وتصحيح النصوص، وأسهم في إخراج عدد من المصادر المهمة في الحديث والتاريخ والرجال والأنساب. ومن الكتب التي ارتبط اسمه بتحقيقها وتصحيحها: أمالي الشيخ الطوسي، والفهرست للشيخ الطوسي، ورجال الشيخ الطوسي، ورجال العلامة الحلي، وفرق الشيعة للنوبختي، وتحف العقول، وعلل الشرائع، ومعالم العلماء لابن شهرآشوب، وتاريخ اليعقوبي وغيرها من الكتب التي تمثل جانباً مهماً من مصادر التراث الشيعي والإسلامي.

وقد كانت هذه الجهود امتداداً لمنهج علمي يقوم على إعادة النصوص إلى صورتها الأقرب إلى أصلها، من خلال الاعتماد على النسخ المتوفرة، والمقابلة، وضبط الاختلافات، وإعداد الكتب للنشر العلمي.

**بين الجمع والفهرسة والتحقيق**

لم يكن اهتمام السيد محمد صادق بحر العلوم منصبّاً على تحقيق الكتب فقط، بل شمل أيضاً التعريف بالمصادر وحفظها وفهرستها. فالفهرسة بالنسبة إلى علماء التراث ليست عملاً إدارياً، بل هي خطوة أساسية للكشف عن الثروة العلمية الموجودة في خزائن المخطوطات.

وقد بقيت مكتبته شاهداً على هذا الاهتمام؛ إذ تضم نسخاً خطية امتازت بما عليها من تصحيحات ومقابلات وتعليقات بخطّه، كما تضم مؤلفاته ومجاميعه العلمية. وتشير الأعمال الخاصة بفهرسة مكتبته إلى وجود أقسام مستقلة للمخطوطات التي امتلكها، والمخطوطات التي نسخها، ومؤلفاته، وشروحه وتحقيقاته وتصحيحاته.

**إرثٌ علمي يتجاوز حدود الزمن**

إن أهمية السيد محمد صادق بحر العلوم لا تكمن فقط في عدد الكتب التي حققها أو جمعها، بل في المنهج الذي مثّله؛ منهج العالم الذي يرى أن خدمة العلم لا تكتمل بالتأليف وحده، بل تشمل حفظ المصادر التي يقوم عليها البناء العلمي كله. لقد كان من أولئك العلماء الذين جعلوا من الكتاب مشروع حياة، ومن المخطوطات أمانةً ينبغي صيانتها، ومن التحقيق العلمي طريقاً لإعادة وصل الحاضر بجذور المعرفة الإسلامية. إن حُرّاس التراث لا يحفظون أوراق الماضي فحسب؛ بل يصونون الذاكرة العلمية التي تحفظ للأمة هويتها ومعارفها.

## قبَسٌ مِن نور

## حين تتزاحم النداءات



د. أحمد باقر الطويل

في حياة الإنسان نداءات كثيرة؛ نداء العمل والطموح، ونداء المتعة والترفيه، ونداء المواعيد والالتزامات. ولكل واحد منها مكانه في يومنا، فنسرع أحيانًا لتلبية ما نرغب فيه، ونخشى أن يفوتنا موعد أو مشهد أو مكسب. لكن وسط هذه النداءات كلها، يتكرر نداء آخر كل يوم، يدعونا إلى الوقوف بين يدي خالقنا. وهنا يبرز سؤال يستحق التأمل: أيُّ النداءات أولى بالاستجابة؟ ولماذا نؤجل أحيانًا ما لا ينبغي تأجيله؟

تأمل مشهد من يتابع مباراة حاسمة، وقد أوشكت على نهايتها، ثم يسمع الأذان فيقول: دقائق قليلة، وبعدها أصلي. أو صاحب متجر يؤخر الصلاة حتى ينتهي من زبائنه، وكأن موعد الوقوف بين يدي الله لا بد أن ينتظر فراغه. ليس الخطأ أن نعمل أو نستمتع أو نسعى في أرزاقنا؛ فالدنيا ميدان للسعي والعمران، ولكن الخلل أن تتحول مشاغلها إلى أعذار تزاحم فريضة جعل الله لها وقتًا معلومًا.

ومن أبلغ ما يلفت النظر في آيات الأحكام أن الصلاة لم تُترك حتى في ميدان الحرب، حيث الخوف قائم، والعدو قريب، والحاجة إلى الحذر شديدة. يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾، [النساء: ١٠٢].

تأمل هذا التنظيم الدقيق: طائفة تصلي، وأخرى تحرس وتحمل السلاح، ثم تتبادل الطائفتان المواقع لتؤدي كل منهما الصلاة وفق أحكام صلاة الخوف. وإذا اشتد الخوف وتعذرت الهيئة المعتادة، جاءت الرخصة التي تراعي الاستطاعة، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾، [البقرة: ٢٣٩]. فالصلاة لا تسقط لمجرد المشقة، وإنما تتغير هيئتها بحسب الحال وما شرعه الله من أحكام.

فإذا كانت الصلاة حاضرة في ميدان الخوف، فكيف نؤخرها من أجل مباراة يمكن أن تنتهي، أو متجر يمكن إغلاقه دقائق، أو موعد نستطيع إعادة ترتيبه؟ إن الآيات لا تدعونا إلى إهمال مقتضيات الحياة، بل تكشف لنا منزلة الصلاة، وتعلمنا أن ننظم شؤوننا حولها، لا أن نجعلها تابعة لما يتبقى من أوقاتنا.

ويقول تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾، [النساء: ١٠٣]. فهي فريضة ذات أوقات، وليست عملًا نؤديه متى فرغنا. ومن هنا يتغير السؤال: بدل أن نقول: متى أجد وقتًا للصلاة؟ لنسأل: كيف أنظم يومي حتى أحافظ عليها في وقتها؟

ثم يدعونا القرآن إلى المبادرة، فيقول: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾، [آل عمران: ١٣٣]. والمسارعة ليست مجرد السير نحو الغاية، بل المبادرة إليها بجد وحرص، وألا يسرق التسويف فرص الخير من الإنسان. إنها دعوة إلى ألا نؤجل ما يقربنا من الله، ولا نبطئ حين تلوح أمامنا أبواب الطاعة.

وتتصل هذه الدعوة بكلمة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: "فإن الغاية أمامكم، وإن وراءكم الساعة تحدوكم، تخففوا تلحقوا، فإنما ينتظر بأولكم آخركم". إنها تذكرنا بأن الزمن لا يقف، وأن العمر يمضي بنا إلى غاية لا يتخلف عنها أحد. و"تخففوا تلحقوا" دعوة إلى التخلص من أثقال الغفلة والتسويف والتعلق بما يصرفنا عن مصيرنا، لا إلى ترك مسؤولياتنا أو طموحاتنا؛ فالعمل والأسرة والرزق أبواب خير إذا أحسن الإنسان قصده، ولم ينسَ الغاية.

وحين تسمع المؤذن يقول: "حي على الصلاة، حي على الفلاح"، تذكر أن هذا النداء يحمل إليك دعوة الله للوقوف بين يديه. إنه ليس صوتًا عابرًا في يوم مزدحم، بل تذكير بمن خلقك ورزقك، وبحقه عليك. فلماذا نسرع إلى تلبية نداءات المباراة والتجارة والمواعيد، ثم نتردد أمام نداء خالقنا؟ ولماذا نخشى أن تفوتنا دقائق من متعة عابرة، ولا نخشى أن تفوتنا لحظات من القرب ممن إليه مصيرنا؟

يمكن للمباراة أن تنتظر، وللمتجر أن يغلق ثم يفتح، وللمواعيد أن يعاد ترتيبها؛ أما العمر فلا يعود إذا مضى. فاجعل الصلاة موعدًا ثابتًا في يومك، لا آخر ما تفكر فيه حين تنتهي أشغالك.

إذا ناداك الله: "حي على الصلاة"، فماذا تنتظر حتى تجيب؟ وهل هناك نداء أولى بالتلبية من نداء خالق الحياة؟